جامعة تكريت/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

المرحلة: الثانية

مادة: الادب الإسلامي

محاضرة: النثر في عصر صدر الاسلام

مدرس المادة: م.د. شيماء اياد محمود

المحاضرة: السادسة

1447هـ 2026م

النثر في عصر صدر الإسلام :

النثر قسيم الشعر في الأدب العربي، وتتفاوت مكانته بتفاوت الازمان والظروف. ولقد عرف العرب في العصر الجاهلي النثر متمثلاً بالخطابة بالدرجة الأولى، و بنمط آخر من أقوال تنسب الى الكهان، أدخلت ضمن النثر الفني، لأنهم كانوا يتقصدون فيها الصنعة متمثلة بالسجع المتكلف والرمزية. وأما الخطابة فان دواعي الحياة العربية آنذاك اقتضت وجودها، بتوافر دواعي نشاطها، متمثلة بكثرة الحروب والايام التي تقتضي أن يقف رؤساء القبائل محرضين قومهم على القتال واستمراره، ذكر منها خطبة هانيء الشيباني محرضاً قومه على قتال الفرس.

ولما كانت الأسواق العربية مكان تجمع للقبائل، فقد كانت القبائل توفد عنها كبار قومها من الشعراء والرؤساء ممن ينوبون عنها، فكان لهؤلاء مكانتهم فيما يخطبون في تلك المحافل، ويسهمون فيما عرف بالمنافرات والمفاخرات. وقد تتم المنافرات في غير الأسواق اذا اقتضى محفل ما أن يقوم خطيب، ليعدد مآثره ومآثر قومه. وتضاف إلى هذه الأنماط من الخطب خطب الإملاك، وهي مما عرفه العرب في المحافل التي يتقدمون فيها لخطبة فتاة فيعرضون طلبهم، وينوهون بمكانة الخاطب وقومه

هذه الخطب لا تشكل مادة علمية يمكن الوقوف عليها لمعرفة سماتها الفنية، لأن معظمها مما لا يمكن الوثوق بصحته، وهو أمر جعل طه حسين ينكر معرفة العرب للنشر الفني مدعياً ان النثر وليد العقل، والشعر وليد العاطفة، وأن العرب أمة شعر، ولم تعرف النثر الا بعد اطلاعها على الفكر اليوناني وقد رد زكي مبارك على هذا الرأي ردوداً علمية منطقية. كان أهمها ان القرآن الكريم خير دليل على معرفة العرب للنثر الفني، لأنه نزل بلغة العرب وأساليبهم، يضاف الى هذا ان نشاط الخطابة والكتابة في العصر الإسلامي دليل على معرفة العرب لهما إلا أن ظهور الإسلام. ودواعي انتشاره أعانا على تطور هذين الفنين ونشاطهما. و سنجد أن هذا التطور قد شمل الأغراض التي استخدمت فيها الخطابة والكتابة والمعاني الواردة فيهما ، كما تشمل الأساليب البيانية فيهما. لقد شهد العصر تطوراً كبيراً في اللغة النثرية وأساليب إيرادها، مما جعلها فناً قائماً بذاته يختلف كثيراً عما نقل من نصوص نثرية في العصر الجاهلي.

١ – تطور الخطابة في عصر الرسول ﷺ :

حين أذن الله ان يبعث محمداً لله نبياً ليدعو قومه الى عبادة الله الواحد الأحد، وقفت قريش معارضة لهذه الدعوة فبدأت باللين أولاً، ثم بالقوة والبطش ثانياً، فكان ان عرضت على الرسول الكريم المال والجاه، فأباهما، وكانت إجابته الخالدة الموجزة المعبرة: (والله لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر أبدا، حتى انفذه أو أهلك في طلبه). عند ذلك يئس كفار قريش من ردع محمد ﷺ، وحاولوا أن يحولوا بينه وبين الناس، وهددوه وآذوا من تبعه، ولم يكن للرسول ﷺ إلا وسيلة الإقناع والإرشاد، يقنع من يراه بمبادئ الدين الإسلامي. وكان الشعر والخطابة الوسيلتين الوحيدتين اللتين يمكن للمرء أن يعبر بهما عن آرائه بين الناس. أما الشعر فقد نزه الله تعالى الرسول عنه – كما مر بنا – فلم يبق إلا الخطابة الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن يجمع بها الناس حولهم، ليفهمهم مبادىء الدين الذي يدعو اليه. ويعرض عليهم أمره. وقد استفاد الرسول منها منذ فجر الدعوة الإسلامية حين خطب في مكة وقريش وقتذاك لم تؤمن بعد يدعوها الى دينه.

وحين هاجر عليه الصلاة والسلام الى المدينة، حيث المرتع الخصب الذي انطلقت منه الدعوة الإسلامية إلى نطاق واسع كانت أول خطبة خطبها الرسول ﷺ في المدينة، في أول جمعة فيها بدأها بعد الحمد بقوله :

(أما بعد، أيها الناس فقدموا لأنفسكم تعلمن والله، ليُصعقن أحدكم، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان، ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك؟ وآتيتك مالاً ، وأفضلت عليك؟، فما قدمت لنفسك ؟ فينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم...)

هكذا بدأ الرسول الكريم دعوته في المدينة موجهاً الى تعاليم الدين، واعظ الناسويلاحظ في هذه الخطبة انه اتبع فيها أسلوب الترهيب واصفاً حال الإنسان يوم أعماله التي يحاسب عليها، وهو الأسلوب نفسه الذي نجده في القيامة حيث يحشر مع الآيات والسور المكية.

وفي الخطبة الثانية التي خطبها الرسول في المدينة دعا الناس فيها الى حب قراءة القرآن الكريم، فهو أحسن الحديث، وذكره وقراءته ذكر الله تعالى الخالق سبحانه الذي أمنوا به وعبدوه. يقول :

(إن أحسن الحديث كتاب الله – تبارك وتعالى – ، قد أفلح من زينه الله في قلبه وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس. انه أحسن الحديث، وأبلغه أحبوا ما أحب الله، أحبوا الله من كل قلوبكم، ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تقس عنه قلوبكم...)

ولما كان ذكر الموت مدعاة لإثارة الخشية في النفوس المؤمنة، فان الرسول ﷺ كان يخطب في الناس ليحرضهم على الثبات على الايمان، والعمل الصالح، وتذكر الموت الذي لابد منه والحساب الذي يواجهه الانسان يوم القيامة. خطب رسول الله ﷺ فقال :

أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا قد كُتِبَ، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وَجَب، وكأن الذين نشيع من الأموات سفر عما قليل راجعون، نبوؤهم أجداثهم ونأكل من تراثهم كأنا مخلدون بعدهم، قد نسينا كل واعظة، وأمنا كل جائحة. طوبى لمن شغله عيبه عن عيب غيره، وأنفق من مال كسبه من غير معصية. ورحم أهل الدين والمسكنة، وخالط أهل الفكر والحكمة.)

ولم تكن مهمة الخطابة الوعظ والإرشاد فحسب، بل كانت وسيلة لتبليغ المسلمين الأوامر والمبادئ الإسلامية التي ينزل بها الوحي على الرسول، فيعرضها الرسول ﷺ على المسلمين فاذا نزلت الآيات الكريمة، وفيها أمر أو واجب يقتضي التزام المسلمين به، جمعهم الرسول الله وخطب فيهم. ففي السنة الثانية للهجرة أمر الرسول ﷺ بإخراج زكاة الفطر. وقيل إنه خطب الناس قبل عيد الفطر بيوم أو يومين، وأمرهم بذلك .. وخطب مرة أخرى وبين للناس أن الله قد افترض عليهم الجمعة وانه من تركها وله إمام فلا جمع الله له شمله، ولا بارك له في أمره، ولا حج، ولا صلاة، ولا زكاة له..

وقد تؤدي الخطبة ما يؤديه البيان الرسمي من إعلان أمر يشمل الأمة، أو يشمل جماعة كبيرة، وليس أدل على هذا من خطبته عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة حين صدق الله وعده بنصر المؤمنين، وقف الرسول ﷺ على باب الكعبة ثم قال :

(لا اله الا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. الا كل مأثرة أو دم أو مال يُدعى، فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج ... الناس من آدم وآدم خلق من تراب. ثم تلا يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ...) (١٢)

واطمأنت نفوس الناس حين سمعوا خطبة الرسول (ﷺ) وما ذكره من مثل سامية فلما سألهم : يا معشر قريش ما ترون اني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً، أخ كريم وابن اخ كريم. قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء (١٣) . وقيل : انه قال لهم : أقول لكم كما قال اخي يوسف (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) [يوسف: ٩٢]

وإذا كنا قد قلنا إن هذه الخطبة أدت ما يؤديه البيان الرسمي، فلأنها أعلنت العفو عن المشركين وأسقطت ما يمكن أن يحاسبوا عليه، إلا أنها تختلف عن البيان بكونها تخاطب العقول والقلوب، فالحوار الذي تخللها يدخل الطمأنينة في نفس السامعين، ولا يكتفي بإعلان العفو وهو خطاب يحتاج إليه مشركو قريش، ليعالج الرسول به ما كان من ضغائن وعداوات بسبب حربهم الله ولرسوله.

وفي السنة العاشرة للهجرة خطب الرسول ﷺ خطبته المشهوره بخطبة الوداع، وفيها بين للناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم، ولخص لهم مبادئ دينهم، وما عليهم من واجبات وحقوق، وأنه عليه الصلاة والسلام شعر بدنو اجله، وقرب نهايته فرأى أن يوصي الناس فلم يجد أحسن من موسم الحج موسماً لتجمع اكبر عدد من المسلمين. وقد كرر الرسول في خطبته عبارة بين فقرة وأخرى، ألا هل بلغت، فيقول الناس: نعم، فيقول : اللهم اشهد.

واستحدث الرسول ﷺ نوعاً من الخطب، وان لم يصل الينا منها إلا القليل، وهي خطب التولية والتأمير، وذلك انه أمر أسامة بن زيد بن حارثة على الجيش الذي بعثه إلى الروم، قائلاً له: (سر الى مقتل أبيك، فاوطئهم الخيل فقد وليتك على هذا الجيش، وان أظفرك الله بالعدو، فأقلل اللبث، وبث العيون، وقدم الطلائع). وقيل انه لم يبق احد في وجوه المهاجرين والأنصار إلا كان في ذلك الجيش، فتكلم قوم، وقالوا: يستعمل هذا الغلام على جلة المهاجرين والأنصار، فغضب الرسولﷺ، وخرج الى المسجد، وصعد المنبر، وعاتب الناس على مقالتهم قائلاً :

(أيها الناس : ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة؟ لئن طعنتم في تأميري أسامة، فقد طعنتم في تأميري أباه من قبله. وأيم الله، إن كان لخليقا بالإمارة، وابنه من بعده الخليق بها، وانهما لمن احب الناس الي فاستوصوا به خيراً، فانه من خياركم). ثم نزل ودخل بيته، وجاء المسلمون يودعونه، ويمضون الى عسكر أسامة

إن هذه النماذج من خطب الرسول ﷺ تؤكد نشاط الخطابة في العصر الإسلامي ومواكبتها للأحداث، وملاءمتها لما تقتضيه الظروف من مواجهة القائد لأمته، ولم يكن سائر العرب بمنأى عن الدعوة الإسلامية. فقد كان الرسول ﷺ يبعث رجالاً من المسلمين الى القبائل العربية يدعون الناس إلى الإسلام، أو يؤمر أحد رجال الوفود الوافدين عليه، فيكون فقيه القوم ومعلمهم ومبلغهم مبادئ الإسلام، وهو أمر ذكرته المصادر القديمة، لكنها لم تذكر نماذج الخطب هؤلاء الأمراء. أما وفود القبائل التي كانت تقدم على الرسول ﷺ فقد كان خطباؤهم يخطبون أمامه، كما كان شعراؤه ينشدون الشعر مفاخرين بأمجاد قومهم وقبيلتهم. وقد ينتدب الرسول ﷺ أحد رجاله ليرد

على خطبة خطيب الوفد كما حدث مع وفد بني تميم حين وفدوا على النبي ﷺ وطلبوا منه أن ينادي خطيبه ليخطب فيهم، وشاعره لينشدهم شعراً. وكان خطيب وفدهم عطارد بن حاجب بن زرارة الذي افتخر بقومه بأنهم اكثر الناس عددا، وأحسنهم وجوهاً، وان منهم رؤوس الناس وأشرافها، وان من يفاخرهم عليه أن يعدد مثل ما ذكر من المفاخر. ولم يفاخر خطيب المسلمين تميماً بمثل ما فاخر خطيبهم، وانما كانت خطبته منسجمة مع الدعوة الإسلامية إذ أنه حمد الله الذي خلق السموات والأرض، وقضى فيهن أمره، وانه قد اختار من خيرة خلقه رسولاً اصطفاه على العالمين. ثم ذكر كيف استجاب المهاجرون الدعوة الرسول ﷺ وجندوا انفسهم لخدمة الرسالة السماوية، يقاتلون في سبيل الله حتى يؤمن الناس. فمن آمن منع الرسول ﷺ ماله ودمه وأهله، ومن كفر جاهدوه في الله وكان قتله يسيراً.

وهكذا خرج خطيب المسلمين بالخطابة من إطارها القبلي إلى أفق الإسلام الواسع، فلا فخر بالأنساب والأحساب، وإنما فخر بالالتفاف حول النبي ، والدفاع عنه، والإيمان بمبادئه.

وإذا كان عام الوفود هو العام التاسع بعد الهجرة، فلا بد ان تكون هناك خطب قد قيلت خطب الرسول ، أو أحد أصحابه، وخطب الوافدين معلنين إسلامهم وطاعتهم للرسول .